الجزءان الثاني والثالث
المجلد الثالث والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

رجب ١٤٠٢ هـ
نيسان ١٩٨٢ م

قراءة في قصيدة «بانت سعاد»

الدكتور عبدالعزيز ناصر المانع

كلية الآداب – جامعة الرياض

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد أولى العلماء والباحثون في مُختلَف العصور الإسلامية ، الشّعرَ والشعراءَ عنايةً فائقة ، لا يمكن أنْ يجادل فيها مجادل ، غيرَ أن عنايتهم تلك تتفاوت من شاعر الى شاعر ، ولكن لا أظنُّ أنَّ باحثاً معاصراً لا يتفق معي على أنَّ قصيدةَ كَعْب ابن زُهَيْر : «بانت سعاد» ، تُعَدُّ واحدةً من القصائد القليلة التي نالت من عناية العلماء ما لم ينله كثير من شعر الشعراء . فالمستقري لفهارس المكتبات والمخطوطات قَلَّ أن يفرغ من تصفحها دون أنْ يَمُرَّ به نص أو شرح أو تعليق أو معارضة لهذه القصيدة . فما سر هذا الاهتمام ؟ . هل هو لمعانيها الإسلامية ؟ هل هو لاهتمام الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، بها ؟ . هل هو تقديس ديني لها ، لأنها ألقيت أمام الرسول ، عليه الصلاة والسلام . وفي مسجده ؟ .

ثم : هل كانت حقاً قصيدةً إسلامية ؟ وهل كانت حقاً جديرة بهذا الاهتمام ؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة ، وقبل الحديث عن القصيدة أو استقرائها ، لا بد من العودة الى المصادر ، لنرى السبب الذي دفع كعباً الى نظم قصيدته ، والى إلقائها أمام الرسول .

لعل أوثق الروايات هي تلك الرواية التي يصل السند فيها الى الحجّاج بن ذي الرُّقَيْبَة بن عبدالرحمن بن مُضَرِّب بن كعب بن زهير . وهي رواية أوردها

ثِقات كالأصبهاني ، وثَعْلَبَ ، وابن بِشْران ، وابن الأنباري ، والخطيب التبريزي ، [1] مع اختلا ف يسير في النّصّ ، أو عدد الأبيات ؛ يقول الخبر : « خرج كعبٌ وبُجَيْرٌ ابْنا زُهَيْر ، حتى أتيا (أَبْرَقَ العَزّاف) ، فقال بُجَيْر لكعب : أُثْبُتْ في غنمنا في هذا المكان حتى آتيَ هذا الرّجُل ، يعني : رسولَ الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، فأسمع منه ، فثبت كعب ، وخرج بُجَيْر ، فجاء رسولَ الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، فعرض عليه الإسلام ، فأسلم ، وبلغ ذلك كعبا فقال :

ألا أبلِغا عَنّي بُجَيْراً رسالةً ... على أيّ شيءٍ وَيْبَ غيْرِكَ ، دَلّكا
على خُلُقٍ لم تُلْفِ أُمّاً ولا أباً ... عليه ولم تُدْرِك عليه أخاً لكا
سقاك أبو بكر بكأس رَوِيّةٍ ... وأنْهَلَكَ المأمور مِنْها وعَلّكا

فلما بَلَغ رسولَ الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، غضِب ، فأهدر دمه ، وقال : « مَنْ لَقِيَ كَعْباً فَلْيَقْتُلْهُ » .

ويروي عُمَرُ بن شَبّةَ بيتاً آخرَ : [2] .

فخالَفْتَ أسبابَ الهُدَى وتَبِعْتَهُ ... فهل لك فيما قلتَ بالخيْفِ هل لكا ؟

فكَتَب بذلك بُجَيْر إلى أخيه ، يذكر له أنّ رسولَ الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، قد أهدر دمه ويقول له : النجاءَ ! وما أرَى أنْ تنفلت . ثم كتب إليه بعد ذلك : إعْلَمَنْ أنّ رسولَ الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، لا يأتيه أحد يشهد أنْ « لا إله إلّا اللهُ ، وأنّ محمّداً رسولُ الله » إلّا قبِل منه فإذا جاءك كتابي هذا ، فأسْلِمْ وأقْبِلْ . فأسْلَمَ كعب ، وقال القصيدةَ التي يمدح فيها رسولَ الله ، صلّى الله عليه وسلم . ثم أقبل حتى أناخ راحلته بباب المسجد ، ورسول الله مع أصحابه مكان المائدة من القوم . . .

(١) الأصبهاني ، الأغاني ١٧ : ٤١ – ٤٥ ، ابن الأنباري ، شرح قصيدة كعب ٩٨/أ – ب ، ابن بشران ، إسلام كعب ١/ب – ٢ب ومنه نقلت النص ، التبريزي ، شرح قصيدة كعب ١٠ – ١١ ، ثعلب ، مجالس ٢ : ٣٤٠ – ٣٤٢ .

(٢) الأصبهاني ١٧ ؛ ٤٤ ، كعب ، ديوانه : ٤ .

قال كعب : فأنَخْتُ راحلتي بباب المسجد فعَرفْتُ رسولَ الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، بالصِّفَة فتَخَطّيتُ حتى جلست إليه ، فأسلمت ، فقلت : « أشْهَدُ أنْ لا إله إلّا الله ، وأنّكَ رسولُ الله ، الأمَان يا رسولَ الله ؟ ! » قال : « من أنْتَ ؟ » قلتُ : كَعْبُ بنُ زُهَيْر قال : « الّذي يقولُ . . . » . ثم التفت إلى أبي بكر فقال : كيفَ قال يا أبا بكر؟ فأنشده أبو بكر (الأبيات الثلاثة المتقدمة) .

فقلتُ : يا رسولَ الله ، ما قلتُ هكذا ، فقالَ : « فكيف قلتَ ؟ » قُلْتُ : إنما قلتُ :

سقاك أبو بكر بِكأس رَوِيةٍ وأنْهَلك المأمونُ مِنْهَا وعلّكا

فقال : « مأمونٌ واللهِ ! » .

ثم أنشده القصيدة كُلّها ، حتى أتى على آخرها » ، ومطلعها :

بانَتْ (سعادُ) فقلبي اليومَ متبولُ مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبولُ .

ومن أبيات كعب لأخيه بُجَيْرُ نخرج بحقيقة لا تقبل جدلاً ولا نقاشاً ، وهي أنّ كعباً – حين أسلم أخوه بُجَيْر – لم يَكن يفكر للحظة واحدة في الدخول في الإسلام ، بل على العكس كان يرى أنّ دين أهله هو « الهُدَى » . ولعل الأبيات في هجاء أخيه ، (لتَخَلّيه عن دين هؤلاء الأهل والانضواء تحت راية الدعوة الجديدة التي لم تكن دينه ولا دين أُمّه ولا أبيه) توحي بهجاء غير مباشر للرسول عليه الصلاة والسلام .

أعتقد أنّ من المهم جداً – قبلَ المُضِيّ في البحث – تحديدَ التاريخ لهذا الحدث الذي نظم فيه كعب أبياته هذه .

إنّ خبر إسلام كعب يشير إشارةً واضحةً الى أنّ بُجَيْراً ترك أخاه عند (أبْرَق العزّاف) ، واتّجه الى المدينة لتَقَصّي أمر الرسول . لكنّه بعد وصوله ومقابلة الرّسول ، عليه الصلاة والسلامُ ، أسْلم ، وأقام هناك [٣] . وما من شك

(٣) الأصبهاني ١٧ : ٤٣ . تقول رواية وحيدة لعمر بن شبة إن بجيراً « أسلم ثم رجع إلى بلاد قومه =

في أنّ إنكار كعب على أخيه في أبياته المذكورة جاء رَدّ فعلٍ مباشراً على هـذا الإسلام غير المتوقّع ، وهو انفعال طبيعي من قبل كعب نتيجةَ نقضِ بُجَيْر ما اتّفقا عليه ، وهو اللقاءُ ثانيةً عند (أبْرَق العَزّاف) . وقد رَدّ بجير على هجاء أخيه بما يناسبه مُبَيِّناً بطلان دينه ودين آبائه (٤) . فمتى كان ذلك ؟

أكاد أجزم بأنّ هذا حدَثَ في أوائل السنة الثامنة للهجرة إنْ لم يكن قبل ذلك ، كما سنرى (٥) .

بعد هذا الشعر المتبادَل بينهما حدث انقطاع دامَ بضعة أشهر ، عادا بعدها الى المكاتبة .

فأين ذهب بُجَيْر في تلك المدة ؟ ومتى عاوَدَ الكتابة لأخيه ؟

يذكر ابن سَلاّم الجُمَحي : أنّ بُجَيراً شَهِد مع الرَّسول ، صلّى الله عليه وسلّم ، فتحَ مَكّة ، وحُنَيْناً (٦) ، كما يذكر ابن قتيبة أنه شهد فتح مَكّة (٧) والفتحُ كان في شهر رَمَضانَ من السّنة الثامنة للهجرة (٨) . وغزوةُ حُنَين كانت في شَوّال من السّنة الثامنة للهجرة (٩) .

ويوردُ ابنُ هشام شعراً لبُجَيْر في فتح مَكّة ، يقول فيه :

نَفَى أَهْلَ الحَبَلْقِ كُلَّ فَجٍّ ... مُزَيْنَةُ غُدْوَةً وبنو خُفافِ

= فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه بجبير بالمدينة » .
ويدل هذا على أنه أسلم قبل الهجرة .

(٤) ابن هشام ، سيرة ٢ : ٥٠٢ .

(٥) الأصبهاني ١٧ : ٤٣ . تقول رواية عمر بن شبة ، أيضاً ، حول بجير : « وشهد يوم الفتح مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويوم خيبر ويوم حنين » . وخيبر كانت في السنة السابعة ، والفتح وحنين في السنة الثامنة . وقد رجحت أوائل السنة الثامنة لأن الأخذ برواية عمر بن شبة — وهي رواية وحيدة — أخذ بالمرجوح فلم يرو غيره مشاركة بجير في غزوة خيبر . ثم إن الأخذ برواية عمر بن شبة يعني أن بجيراً أسلم قبل الهجرة بينما تقول الرواية الراجحة والواردة في المصادر الأخرى أنهما افترقا عند « أبرق العزاف » وهو — كما يقول ياقوت ١ : ٦٨ « في طريق القاصد إلى المدينة » .

(٦) ابن سلام ، طبقات ٩٩ .
(٧) ابن قتيبة ، الشعر ، ١٥٤ .
(٨) الواقدي ، المغازي ٦ .
(٩) المرجع نفسه ، ٦ .

ضربناهُم بمكّة يومَ فتح النّبـ ـيّ الخيْـر بالبيـض الخفاف
فرُحْنَا بالجياد تجودُ فيهِمْ بأرْماح مُقوّمَة الثّقاف
فأبْنـا غانمينَ بما اشتهينا وآبُوا نادمينَ على الخلاف
وأعطينا رسولَ الله منّـا مَواثِقَنا على حسنِ التصافي (١٠)

ويوردُ له شعراً في يوم حُنَيْن ، يقول فيه :

لـولا الإلَهُ وعَبْدُهُ وَلّيْتُمُ حينَ اسْتَخَفَّ الرُّعْبُ كُلَّ جبانِ
بالجزْعِ يوم حبالنا أقْرانُنـا وسوابِحٌ يَكْبُونَ لـلأذْقـانِ
والله أكرمنا وأظهـر دينـنا وأعزّنا بعبـادَة الرّحْمـنِ
والله أهلكهم وفرّق جمعَهُمْ وأذَلّهُمْ بعبادةِ الشّيْطانِ (١١)

ويوردُ له شِعْراً في حصار الطائف ، يقول فيه :

كانت علالَةَ يوم بَطْنِ حُنَيْنٍ وغَداةَ أوْطاسٍ ويوم الأبْرَقِ
جَمَعَتْ بأغْواءٍ هَوازِنُ جَمْعَها فتبدّدُوا كالطائـر المُتَمَزِّقِ
لم يَمْنَعُوا مِنّا مَقاماً واحداً إلاّ جِدارَهُمُ وبطْنَ الخَنْدَقِ
ولقد تَعَرَّضْنا لكيما يَخْرُجُوا فتَحَصَّنُوا مِنّا بباب مُغْلَقِ (١٢)

إذَنْ فقد شهِد بُجَيْر مع الرّسول فتح مكّة ، وغزوةَ حُنَيْن ، وحصارَ الطّائف . وبعد الحصار عاد رسولُ الله ، صلّى الله عليه وسلم ، واعتمر ، ثم رجـع الى المدينة في أواخر ذي القَعْدة من السّنة الثّامنة ورجع بُجَيْر معه (١٣)

يقول ابن إسحاق :

« فلمّا قدِمَ رسولُ الله من مُنْصَرفه من الطّائف ، كتب بُجَيْر الى أخيه : أنّ النبيّ ، صلّى الله عليه وسلّم يَهُمُّ بقتل كُلِّ من يُؤذيه من شعراء المشركين . . . » (١٤) .

(١٠) ابن هشام ٢ : ٤٢٥ .
(١١) المرجع نفسه ٢ : ٤٥٩ .
(١٢) المرجع نفسه ٢ : ٤٨٧ .
(١٣) الواقدي ٩٥٨ . ابن هشام ٢ : ٥٠٠ .
(١٤) كعب ، ديوان ٤ ، ابن هشام ٢ : ٥٠١ ، ابن حجر ، الإصابة ٥ : ٥٦٦ .

وإذا كانت عودةُ الرَّسول من الطّائف في أواخر ذي القَعْدة ، فإن بُجَيْراً – على هذا – قد كتب لأخيه كعب بعد انقطاع دام أربعة أشهر في أقلّ التقديرات .

فما الذي حمل بُجَيْراً على الكتابة ؟ ولِمَ اختار هذا الوقت نفسه ليُراسِلَ أخاه ويُحَذِّرَهُ ؟ .

التعليل الأرجح لهذا ، هو أنّ الرسول عاد من فوره الى المدينة ، بعد أن حقق انتصارات عسكرية عظيمة ، لعلّ أهمها وأعظمها على الإطلاق فتح مكة أقوى مراكز المعارضة للدعوة الجديدة في الجزيرة العربية ، وبعد هذا النجاح الديني السياسي الكبير ، بَدَأَتْ قُوَى المعارضة تتلاشى ، والشعراءُ من بين هذه هذه القُوَى ، بل هم صداها ، إذْ كانوا يمثلون أقوى وسائل الحرب الإعلامية ضدّ الرسول ، هذا بُجَيْر يقول في رسالته لأخيه : « إن النّبيَ صلّى الله عليه وسلّم ، يَهُمُّ بقتل كلّ من يؤذيه من شعراء المشركين ، وابن الزِّبَعْرَى وهُبَيْرَةُ بن أبي وهْب قَدْ هَرَبا . . . » [١٥] .

لا أظُنُّ أنّ الدّافع الذي دَفَعَ بُجَيْراً أن يكتب لأخيه – وهو يرى هذا المصير لشعراء مكة – كان دافعاً دينياً بحتاً ، لكنها وشائج القربى والأخوة ثارت في نفس بُجَيْر ، فكتب إليه يحثُّه على القدوم ، لأنّ الرسول « لا يقتل أحداً جاء تائباً » .

كيف كان موقف كعب بعد وصول الرسالة ؟

ينبغي أنْ أشير الى شيْ مهم هنا ، وهو أنّ الشاعر الجاهلي ، بل الرجل الجاهلي بصفة عامة ، يعتمد اعتماداً رئيساً على قبيلته في حالة إحساسه بالخطر واذا كان الرسول – كما يقول بُجَيْر – « يَهُمُّ بقتل كلّ من يؤذيه من شعراء المشركين » [١٦] ، وإذا كانَ دم كعب « قد أُهْدِر » ، [١٧] فإنّه – والحالُ

(١٥) ديوان كعب ٤ – ٥. (١٦) المرجع نفسه ٤ – ٥. (١٧) المرجع نفسه ٤ – ٥.

هذه – لا بدّ أن يفزَعَ إلى قبيلته طلباً للاجارة ، إحدى المبادئ الرئيسة في نظام القبيلة الجاهلية .

فأين هي مُزَينة من كَعْب ؟

من أبيات قصيدة بُجَيْر في فتح مكة ، التي أوردها ابن هشام ، يتبيّن لنا أن مُزَيْنةَ قد دخلت في الإسلام ، وحاربت مع الرَّسول ، صلّى الله عليه وسلّم ، يوم الفتح . هذا بجير يقول :

نفى أهْلَ الحَبَلْقِ كُلَّ فَجٍّ مُزَيْنَةُ غُدْوَةً وبنو خُفافِ
ضربنـاهم بمكـّةَ يومَ فتح الـ ـنّبيِّ الخَيْر بالبيض الخِفافِ
صبحناهُمْ بسبعٍ من سُلَيْمٍ وألْفٍ من بني عُثْمان وافي (١٨)

وبنو عُثْمان : هُمْ مُزَيْنة .

ويؤيد هذا ما رواه ابن سعد في طبقاته عن وفادة مُزَيْنة على رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، في النِّصف الثاني من السّنة الخامسة للهجرة في أربع مئة ، ومشاركتهم في فتح مكة بألف رجل تحت لواء خُزاعيَ بن عبدِ نَهْم (١٩) إذنْ فمزينة – عندما احتاجها كعب – كانت قبيلة مسلمة .

وموقف كعب – والرَّسولُ في المدينة مستقر بعد الفتح ، وقد ازداد قوة بعد ضعف ، ومزينةُ قد دخلت في الإسلام كابنها بُجَيْر – وإنْ كانت أسبق – موقفٌ لا يُحْسَد عليه ، فقد سُدَّت كل السبل في وجهه .

لا بد أنّه – والحالة هذه – وجد نفسه مضطراً الى شد الرِّحال الى المدينة والدّخول في الإسلام ، إن لم يكن عن قناعة فليكن طلباً للأمان .

يقول السُّكّري في رواية عن ابن إسحاق :

« . . . فلمّا أتاه كتاب بُجَيْر ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان في حاضره ، وقالوا : هو مقتول وأبَتْ مُزَيْنَة أن تُؤْوِيَهُ . . . » (٢٠)

(١٨) ابن هشام ٢ : ٤٢٥ – ٤٢٦ .
(١٩) ابن سعد ، طبقات ١ : ٢٩١ – ٢٩٢ .
(٢٠) ديوان كعب ٥ .

لعل هذا ما قَصَدَهُ كَعْب حين قال :

وقال كلُّ خليلٍ كنْتُ آمُلُهُ لا أُلْفَيَنَّكَ إنّي عنكَ مَشْغول

فقلتُ : خَلُّوا سَبيلي لا أبا لكُمُ فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَّحْمن مفعولُ (٢١)

وفي المدينة قصد كعب – بحسب رواية ابن سَلاَّم – أبا بكر ، فلما صلّى الصبح أتَى به ، وهو متلثِّم بعمامته ، فقالَ : يا رسول الله رجل يبايعك على الإسلام ، وبسطَ يده وحَسَرَ عن وجهه ، وقال : بأبي أنتَ وأُمّي ! هذا مكانُ العائذ بك ، أنا كعب بن زُهَيْر . . . فأمّنهُ رسول الله ، فأنشد مِدحته التي يقول فيها :

« بانت (سعادُ) فقلبي اليومَ متبولُ » (٢٢) .

ينبغي – بعد هذا كله – أن لا نتعجّل في الحكم على مدى صدق الشّاعر كعبٍ في مجيئه وإسلامه وقصيدته .

وقبل استقراء القصيدة ، لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار أمرين :

١– أنّ القصيدة قد نُظِمت في مدة قلقلة جداً من حياة كعب .

٢– أن الروح التي كانت تجري في دمه عند إلقاء القصيدة كانت روح شاعر جاهلي يقف بين يَدَيْ رسولِ الله ليلقي قصيدة اعتذار وطلب عفو عن حكم قتلٍ صادر .

وعلى هذا فنظم القصيدة كان في حياته الجاهلية ، وإلقاؤها كان في لحظة انتقال من الشرك الى الإسلام . وعليه أيضاً لا ننتظر أن يحدثنا كعب حديث الشاعر المسلم ، لأنه شاعر لم تتشبع روحه بعدُ بأبسط قواعد الدين الحنيف وأصوله.

لعل هذا يتضح من استقراء القصيدة ، التي يبلغ مجموع أبياتها خمسةً وخمسين بيتاً بحسب رواية الديوان (٢٣) .

الموضوعات الرئيسة للقصيدة :

١– وصف المحبوبة ، أو : المقدمة الغزلية . ويشمل الأبيات من مطلع القصيدة حتى البيت الرابع عشر .

(٢١) المرجع نفسه ١٩. (٢٢) ابن سلام ٩٩ – ١٠٠. (٢٣) ديوان كعب ٦ – ٢٥.

٢– وصف الناقة ورحلتها. ويبدأ من البيت الرابع عشر الى البيت الثاني والثلاثين.

٣– الاعتذار لرسول الله صلى الله عليه وسلم . ويبدأ من البيت الثاني والثلاثين الى البيت الثاني والأربعين .

٤– وصف الأسد . ويبدأ من البيت الثاني والأربعين حتى الثامن والأربعين .

٥– مديح الرسول ، صلّى الله عليه وسلم والمهاجرين . ويبدأ من البيت الثامن والأربعين إلى آخر القصيدة .

تلك موضوعات القصيدة العامة ، وسأقف عند كل موضوع كي تتضح مدى الرّابطة بين موضوعات القصيدة المختلفة وبين الموضوع الرئيس الذي وصفت به ، وهو أنها مديح للرسول ، أو أنها قصيدة إسلامية . ومن هذا المنطلق نالت عناية خاصة لم تتميز بها قصيدة إسلامية غيرها .

١– يتحدث كعب في مقدمته الغزلية عن (سعاد) حديث المُحبِّ المَشُوق ، ويصفها وصفاً لا يتفق مع الموقف الذي تُلْقَى من أجله القصيدة : (٢٤) .

بانت (سُعادُ) فقلبي اليومَ متبولُ
مُتَيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مكبــولُ
وما (سعادُ) غَداةَ البَيْنِ إذْ رَحَلُوا
إلاّ أغَنّ غَضيضُ الطّرْفِ مكحولُ
تَجْلُو عَوارِضَ ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ
كأنّهُ مُنْهَلٌ بالــرّاح معلــولُ
شُجّتْ بذي شَبَمٍ من ماءِ مَحْنِيَةٍ
صافٍ بأبطَحَ أضحى وهْوَ مشمولُ

كَعْبٌ في بيته الأول يتحدث عن فراق من أحَبَّ ، ولا غضاضَة في هذا الى حَدٍّ ما . لكنه في أبياته الثلاثة الأخرى يتحدّثُ عنها حديث من عرف (سعادَ)

(٢٤) المرجع نفسه ٦ – ٧ .

وعاشرها معاشرة حقيقية ، فصوتها فيه هذه الغُنّة ، وطرفُها غَضيض ، ورائحةُ ثَغْرها تشبه رائحة الفم المعلول بالخمر ، ولا يدرك هذا – في الغالب – إلا من قارب الفم وقَبّل ! وبالرغم من قناعتي أنّ هذه الأبيات ليست تجربة حُبٍّ حقيقية ، فإني أتساءل : كيف يقول كعب بن زهير شعراً فيه هذه الصراحة في الغزل وذكر الخمر ، يُنشده أمامَ رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، وهما موضوعان لا يرى الإسلام طَرْقهما لِما في الأول من إساءة لأعراض نساء المسلمين ، ولِما في الثاني من إشارة الى شيءٍ محرّم هو الخمر ؟ .

ما موقف الرسول عليه الصلاة والسلام من الغزل ؟ وما موقف شعرائه منه ؟ وهل كان موضوعاً يطرقه الشعراء المسلمون ؟ .

إن المستقصي لدواوين شعراء الرسول الثلاثة ؛ حَسّان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبدالله بن رَواحة يخرج – فيما أظنُّ – بالحقائق الآتية [٥] :

أ – أن قصائد حسان بن ثابت ، التي قالها في الإسلام وتبدأ بمقدمات غزلية ، لا تزيد على ست قصائد ، واحدة منها ذكر فيها الخمر [٢٦] لكن هذا الغزل في رأيي لا يمكن القياس عليه أو الاعتداد به لعدة أسباب :

السبب الأول : أن معظم هذه القصائد قيلت في وقت مبكر جداً من حياة حسّان الإسلامية وفي مدة لم تكتمل فيها – بعدُ – الرسالة السماوية ، إذْ نُظِمَتْ بعض

---

(٢٥) قد يحتج بسماع الرسول عليه الصلاة والسلام لقصيدة حسان بن ثابت الهمزية :

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء

وفي مقدمتها حديث عن الغزل والخمر .

ويرد على هذا بما أورده السهيلي من أن حسان مر بفتية يشربون الخمر في الإسلام فناهم فقالوا: والله لقد أردنا تركها فزينها لنا قولك :

ونشربها فتتركنا ملوكاً ... وأسداً ما ينهنهنا اللقاء

فقال : والله لقد قلتها في الجاهلية .

وكذلك قيل : إن بعض هذه القصيدة قالها في الجاهلية ، وقال آخرها في الإسلام » ، انظر السهيلي ، الروض ، ٧ : ١٥١ .

(٢٦) ديوان حسان : ١ ؛ ١٧ ، ٢٩ ، ٤٠ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٢٦٥ .

هذه القصائد في مناسبات رثاء أو مديح لمن شاركوا في غَزْوَتي بدر وأُحُد ، والغزوتان – كما هو معلوم – كانتا في السنتين الثانية والثالثة للهجرة ، وهو وقت كانت الحاجة فيها الى الشعراء ماسّة مهما كانت فواتح قصائدهم .

السبب الثاني : أن من الروايات ما يقول إنّ (شعثاء) التي تَغَزَّل بها حسّان ابن ثابت هي زوجته : شعثاء بنت كاهن الأسلمية أم فراس ولده [٢٧] . وعلى هذا يخرج هذا الغزل من نطاق الغزل الذي لا يقبله الإسلام .

السبب الثالث : أن غزله هذا ، على قِلّته وعفافه ، قد قيل في وقت أوفى فيه حسان على الستين ، فلا خوف عليه في غزله ولا منه ، سواء كان قد قصد غزلاً حقيقياً أو طَلَلِيّاً .

السبب الرابع : أننا لا نجد له في ديوانه قصيدة غزل مستقلة بعد إسلامه .

ب– وإذا راجعنا ديوان كعب بن مالك الأنصاري فإننا لا نجد له مقدمة غزلية واحدة بعد إسلامه ، إلا مقدمة واحدة في ثلاثة أبيات يصف فيها « الهـوى » بأنه « تمادى في الغَواية » [٢٨] .

ج – وموقف عبدالله بن رَواحة موقف مماثل لموقف كعب بن مالك ، إذ لا نجد له أيضاً قصيدة واحدة ، بل لا نجد له بيتاً واحداً في الغزل أو وصف الخمر بعد إسلامه ، بل كل شعره في مديح الرسول عليه الصلاة والسلام والذَّب عنه وعن دَعْوته الجديدة ولعل هذا ما دفع رسول الله الى أن يثني عليه ، بعد إلقائه قصيدةً في مديحه ، ويقول فيه – كما ورد في صحيح البخاري : « إنّ أخاً لكم لا يقول الرَّفَثَ ، يَعْني بذلك ابن رَواحة . » [٢٩]

---

(٢٧) المرجع نفسه ٢ : ٦ .

(٢٨) ديوان كعب بن مالك ١٨٩ تقول الأبيات :

طرقت همومك فالرقاد مسهد ... وجزعت أن سلخ الشباب الأغيد

ودعت فؤادك للهوى ضمرية ... فهواك غوري وصحبك منجد

فدع التمادي في الغواية سادراً ... قد كنت في طلب الغواية تفند

(٢٩) البخاري ، صحيح ٧ : ١٠٨ .

د – من الأسباب التي علّلت المصادر بها قتلَ الرسول لكعب بن الأشرف : شاعر المدينة ، أنه كان يشبب بنساء المسلمين [٣٠] . وعلى أن القتل كان لأسباب سياسية بحتة منها خروجُهُ الى مكة وتحريضُهُ المكيين على الرسول ، فإن في اختيار التشبيب ليكون أحد الأسباب ، بل السبب الرئيس عند بعض المصادر ، دليلاً على مكانة الغزل الصريح وموقف الرسول عليه الصلاة والسلام منه .

أما ذكر كعب للخمر ، فما من شك في أن كعب بن زهير قد ذكرها في شعره في وقت إنْ لم يكن التحريم النهائي قد نزل بشأنها ، فهو وقت كانت مكروهة فيه شرباً وذِكْراً . ومع هذا ذكر ابن العربي أن الخمر حُرِّمَتْ قبل إنشاد كَعْب بن زهير لقصيدته [٣١] .

بعد هذا كله :

أَلَمْ يَنْهَ عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، عن التَشْبيب بالنِّساء ؟

هذا الأصبهاني يروي خبراً عن إبراهيم بن المنذر الحزامي يقول فيه :

« تَقَدَّم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه الى الشعراء ألاَّ يُشَبِّبَ أحد بامرأة إلاَّ جلَده ، فقال حُمَيْد بن ثَوْر :

أَبَى الله إلاَّ أنَّ سَرْحَةَ مالك ... على كُل أفنانِ العضاهِ تروقُ

فقد ذهبت عَرْضاً وما فَوْقَ طُولِها ... من السَّرْحِ إلاَّ عَشَّةٌ وسحوقُ

فلا الظِّلَّ من بَرْدِ الضُّحَى تستطيعُهُ

ولا الفَيْءَ من بَرْدِ العَشِيِّ تذوقُ

فهل أنا إن علّلْتُ نفسي بسرْحَة

من السَّرْحِ موجودٌ عَلَيَّ طريقُ ؟ [٣٢]

(٣٠) الأصبهاني ٢٢ : ١٢٥ – ١٢٧ . ابن سلام ٢٨٢ – ٢٨٣ .

(٣١) ابن عربي ، أحكام ١٤٣٥ . (٣٢) الأصبهاني : ٣٥٨ .

ابن عبدالبر ، الاستيعاب ، ٣٧٨ . وإبراهيم بن المنذر الحزامي هو راوي خبر إسلام كعب وقصيدته ، راجع المصادر في الهامش رقم ١ .

لقد اضطُرَّ الشاعر إلى الرَّمز لمّا مَنَعَ عمر رضي الله عنه، التصريح بالتشبيب !

ألم يعزِلْ عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، واليَهُ على (مَيْسانَ) من أرض (البصرة) : النُّعمان بن عَدِيّ ، لأنّهُ ذكر الخمر في شعره ، عند ما قال مخاطباً زوجتَهُ لمّا أبَتْ الخروجَ معه الى (مَيْسان) :

من مُبْلِغُ الحسناء أنَّ حليلَهـا
بمَيْسانَ يُسْقَى في زُجاجٍ وحنْتَمِ ؟
إذا شِئْتُ غنّتني دَهاقينُ قريـة
وصَنّاجَةٌ تجثُو على كُلِّ مَنْسِمِ
إذا كُنْتَ نَدْمانِي فبالأكبرِ اسْقِنِي
ولا تَسْقِني بالأصغر المُتَثَلِّمِ
لَعَـلَّ أميـرَ المُؤمنينَ يسـوؤهُ
تنادمنا في الجَوْسَقِ المُتَهَدِّمِ !

فقال عمر : والله إنه ليَسُوؤني ! وعَزَلَهُ . فلمّا قدِمَ النُّعمان عليه سأله فقال : والله ما كان من ذلك شيءٌ ، وما كان إلاّ فضلَ شعر وجدته ، وما شربْتُها قَطُّ ، فقال عمر : أظُنُّ ذلك ، ولكن لا تعمل لي على عمل أبداً [٣٣] . وكان عمر وَلاّه « لِما كان في نفسه من صلاحه » [٣٤] .

أعود الى كعب ، فأقول : لقد سَمَحَ لنفسه بالحديث عن الغزل والخمر ، لأن ثقافته الإسلامية كانت محدودة جداً ، لا تتعدى نطق الشهادتين ساعة إلقائه القصيدة . أما سماع الرسول ، صلّى الله عليه وسلّم ، لهذا النوع من الشِّعر ، فليس سَماعَ الرَّاضي به ، ولا المُوافق عليه . لكنّهُ عليه الصلاة والسلام ، بُعِث مبشِّراً ولم يُبْعث مُنفِّراً ، وسَماعُه لهذا المطلع الغزلي — الخمري الصَّريح

(٣٣) ابن حجر ٦ : ٤٤٧ ، ابن دريد ، الاشتقاق ١٣٩ ، ابن عبدالبر ، ١٥٠٢ — ١٥٠٣ ، المصعب الزبيري ، نسب قريش ٣٨٢ ، ياقوت ، معجم البلدان ٥ : ٢٤٣ .
(٣٤) ياقوت ٥ : ٢٤٣ .

مرحلة أولى تتبعها مراحل أخرى من التوجيه والتهذيب حين تستقرُّ نفس الشاعر، ويبدأ في استيعاب الأصول الاسلامية .

وشيٌ آخر أهم ، وهو أن الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، حين يسمع من كعب هذا النوع من الشعر ، فهو سماع قُصِد منه غرض آخر ، هو استمالة الشعراء الى جانب الدعوة الجديدة ، فَلأنْ يعود كعب — من عند رسول الله ، وقد رضي عنه، خيرٌ للاسلام من عودته غاضباً هاجياً ، ومعلومٌ — كما تقدَّم — أن الشعراء هم وسائل الإعلام الأولى في ذلك العصر . بل لو عاد الشاعر ولم يمدَحْ ولم يَهْجُ وظلَّ صامتاً — كما فعل كعب — فإنَّ هذا يُعَدّ كسباً كبيراً ، فَلأنْ يصمُتَ خيرٌ من أنْ يهجوَ ، وخيرٌ منهما — بطبيعة الحال — أنْ يمدح .

إذن فمعاملة الرسول ، صلّى الله عليه وسلّم ، للقصيدة وللشعراء عموماً هي معاملة خاصة قُصِد منها استقطاب الشعراء الى جانب الدعوة ، وهي بعدُ فَتيّة .

ولعلّ مما يؤكد شدة إحساس النبي ، عليه الصلاة والسلام ، بمكانة الشعر ، وكراهيته للهجاء خاصّةً ، وشدة وقعه في نفسه ، وتأثيره في نفوس العرب عموماً ، وحديثي الإسلام منهم على وجه الخصوص — ما رُوِي عنه : « اللّهم ! من هجاني، فالْعَنْهُ مكانَ كُلِّ هجاءٍ هجانيه لعنةً » (٣٥) .

وكذلك ما أورده ابن سَلاّم في حديثه عن الشاعر أبي عَزّة الجُمَحيّ لمّا أُسِر يومَ بدْر، فقال : « يا رسول الله ! إنّي ذو عيال وحاجة قد عَرَفْتَها، فامنُنْ عليَّ ، صلّى الله عليك » . فقال (الرسول) : « على أنْ لا تُعينَ عَلَيَّ — يُريدُ شِعْرَهُ — » ، فقال : نعم ، فعاهَدَهُ وأطْلَقَهُ ، فقال :

ألا أبْلِغا عَنّي النَّبِيَّ (مُحَمّداً) بأنّكَ حَقٌّ والمليك حَميدُ
وأنْتَ امرُؤٌ تدعو الى الرُّشْدِ والتُّقَى عليك من الله الكريم شَهيدُ (٣٦)

(٣٥) القرشي ، جمهرة أشعار العرب ٢٩ .

(٣٦) ابن سلام ٢٥٣ — ٢٥٥ .

لكنه عاد الى هجاء الرسول ، وأسر يوم أحُد ، وقال : « يا رسول الله ! مُنَّ علَيَّ ، فقال النبي ، صلّى الله عليه وسلّم : لا يُلْسَعُ المُؤْمِنُ من جُحْرٍ مرَّتين . . . » فقَتَلَه (٣٦) .

ذلك شعور الرسول تجاه الشعراء ، ولا أظن كعباً مستثنى من هذا الشعور .

٢– الموضوع الثاني من موضوعات القصيدة ، لا أظنه يحتاج الى طويل وقوف لإثبات جاهليته ذلك هو موضوع وصف كعب لناقته ورحلتها ، الذي استغرق أكبر عدد من مجموع أبيات القصيدة . صحيح أن الإسلام لا ينهى عن وصف الناقة أو الرحلة ، لكن المستقصي للقصائد التي أُلْقيت أمام الرسول ، أو قيلت في مديحه أو هجاءِ المشركين ، يجد أنَّ الشاعر في جُلِّ هذه القصائد لا يقف هذه الوقفة عند وصف ناقته ، أو رحلته ، أو عند أطلال محبوبته ، (٣٧) هـذا حسّان بن ثابت يردُّ على عبدالله بن الزِّبَعْرَى ، فيبدأ قصيدته بقوله :

ذهبتْ بابنِ الزِبَعْرَى وقعةٌ كان مِنّا الفضلُ فيها لو عَدَل (٣٨)

ويلقي قصيدته أمام الرسول في الرَّد على شاعر وَفْد تميم ، فيقول :

إنَّ الذَّوائبَ من فِهْرٍ وإخْوَتِهِمْ
قد بَيَّنُوا سُنَناً للنّاسِ تُتَّبَعُ (٣٩)

وهذا كعب نفسه بعدَ إعلان إسلامه وإقامته في المدينة ، يَمْدَحُ الأنصار ، فيبدأ قصيدته :

---

(٣٧) أخذت حسان بن ثابت مثالا فوجد أنه لا يتغزل أو يقف على الأطلال أو يصف راحلة أو رحلتها في معظم قصائده الإسلامية . ، أنظر – في ديوانه – مثلا الصفحات :
٨٦ ، ٩٨ ، ١٠٩ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٥٣ ، ١٨٥ ، ٢٢٤ ، ٢٤٣ ، ٢٦٩، ٢٨٤ ، ٣٢٥ ، ٣٣٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥٣ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ، ٤٥٠ ، ٤٥٥ ، ٤٨٧ ، ٥٠٢ .

(٣٨) ديوان حسان ١ : ٦٧ . (٣٩) المرجع نفسه ١ : ١٠٢ .

مَنْ سَرَّهُ كَرَمُ الحياةِ فلا يَزَلْ في مِقْنَبٍ من صالحِي الأنصار(٤٠)

أكادُ أجزم بأن بَدْءَ كعبٍ لهذه القصيدة ، دون مقدمة طَلَليّة ، جاء نتيجة توجيه جديد ، إنْ لم يكن من الرسول فمنْ أصحابه .

٣ــ بعد وقفته الطويلة عند وصف ناقته ومقدرتها على أشَقّ المصاعب والطرق في رحلتها الى (سعاد) ، يتنبه كعب فجأة الى « الرشاة » بجَنْبَيْ ناقته ، وهم يقولون له : إنه مقتول ، وإن الرسول قد تهدَّدَهُ . وكأني به يغيّر مَسار راحلته المتجهة الى (سعاد) ، ويتجه الى رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، ليواجه هذا القدر المحتوم ، وهنا يدخل كعب في أحد الموضوعين الرئيسين ، وهو الاعتذار عما قيل عنه :

يسعى الوشاةُ بجَنْبَيْها وقولُهم إنّكَ يا ابْنَ أبي سُلْمَى لمقتولُ
وقال كُلُّ خليلٍ كنْتُ آملُهُ لا أُلْفِيَنَّكَ إني عنك مشغولُ
فقلتُ : خَلّوا طريقي لا أبا لَكُمُ فكلُّ ما قَدَّرَ الرَّحْمنُ مفعول
كُلُّ ابنِ أُنْثَى وإنْ طالتْ سلامته يوماً على آلةٍ حدباءَ محمولُ
أُنْبِئْتُ أنَّ رسولَ الله أوعدني والعفْوُ عند رسولِ الله مأمولُ
مَهْلاً هداكَ الذي أعْطاكَ نافلةَ الـ ـقُرآنِ فيها مواعيظٌ وتفصيلُ
لا تَأْخُذَنّي بأقْوالِ الوُشاةِ ولم أُذْنِبْ، ولو كَثُرَتْ عني الأقاويل(٤١)

لقد أشرت في أول هذا البحث الى موقف قبيلةُ مُزَيْنة من كعْب ورفضِها إجارتَه ، وها هو ذا يَجِدُ نفسه ــ بعدَ أن تخلّى عنه كل خليل ــ وحيداً مستسلماً للقدر الإلهي ، مؤمناً بأنه لا ضَيْرَ في هذا ما دامت نهاية الإنسان ــ مهما طالت سلامته ــ أن يُحْمَلَ على تلك الآلة الحَدْباء الى مثواه الأخير .

لقد صَوَّر كعب في هذه الأبيات الصراع النفسي العنيف الذي عاناه بعد عزلتــه ، وقبل مجيئــه ، تصويرَ من أعْيَتْهُ الحلول لِما ألَمَّ به فلَجأ

(٤٠) ديوان كعب ٢٥ . (٤١) المرجع نفسه ١٩ ــ ٢٠ .

الى القدر يؤمن به ! ويستمر في رسم صورة ذلك الوضع قبل مبايعته الرسول، فيقول :

لقَدْ أقومُ مَقَاماً لو يقوم بـــه ... أرى وأسمع ما لو يسمع الفيـــلُ
لظَلَّ يُرْعَدَ إلاَّ أنْ يكونَ لـــه ... من الرَّسولِ بإذْنِ الله تنويـــلُ
حتّى وَضَعْتُ يميني لا أُنازعهُ ... في كفِّ ذي نَقِمَاتٍ قِيلُهُ القِيلُ
لذاكَ أَهْيَبُ مِنِّي إذْ أُكَلِّمُهُ ... وقيلَ : إنَّكَ مسبورٌ ومسؤولُ
من ضَيْغَمٍ من ضِراءِ الأُسْدِ مُخْدَرُهُ
ببَطْنِ (عَثَّرَ) غِيلٌ دونَهُ غِيلُ (٤٢)

لوحةٌ رائعة في التعبير عن المعاناة ، سَخّر لها كَعْبُ كلَّ مَقْدرتِه الشّعرية، ووضَعها بين يَدَيْ رسولِ الله ، طلباً للعفو !

ومع هذه الروعة أفمنْ حقّنا أنْ نصف أبياته في الاعتذار بأنها أبيات ذات روح إسلامية ؟ أو نقول إنها امتداد لبيئة الشاعر الجاهلية ؟

أميل الى الخيار الثاني، وذلك لأن هذه المعاني محدودة في أبياتٍ ثلاثة، هي :

فقلت : خَلُّوا سبيلي لا أبالكـــمُ ... فكلُّ ما قَدَّرَ الرَّحْمن مفعولُ
أُنْبِئْتُ أنَّ رسولَ الله أوعدني ... والعفوُ عندَ رسول الله مأمولُ
مَهْلاً ! هَداكَ الذي أعطاكَ نافِلَةَ القُرآن فيها مواعيظٌ وتفصيـــلُ

أقول : أو ليس من بديهيات الأمور أن يستعد شاعر مثل كعب ، يستخدم إعلانَ إسلامه ، في سبيل الحُصول على عفو من حكم قتل ، ببعض العُدَّة اللفظية بما يناسب المقام الذي سيلقي فيه قصيدته ؟ كيف سيعتذر إنْ هو لم يَسْتخدم لغة دينية هي أقرب وأفضل عند الرسول ؟

على الرغم من هذا فإنَّ بعض المعاني الواردة ليست جديدة على كعب ، بل كانت مستخدمة في بيئته الجاهلية .

(٤٢) المرجع نفسه ٢٠ – ٢١ .

يقول الإمام ابن جرير الطبري :

« . . . ولذلك قال المشركون للنّبي ، صلّى الله عليه وسلّم : (وما الرَّحْمن أنَسْجُدُ لما تَأْمُرُنا » إنكاراً منهم لهذا الاسم . كأنه كان مُحالاً عنده أنْ يُنكِر أهل الشرك ما كانوا عالمين بصحّته ، أو : لا ، وكأنه لم يَتْلُ من كتاب الله قوله تعالى « الّذينَ آتيناهُمُ الكِتابَ يَعْرِفُونَه » — يعني محمداً — « كما يَعْرِفُونَ أبناءهُمْ » — وهم مع ذلك به مُكَذِّبون ، ولنبوته جاحدون ! فيعلم بذلك أنّهم كانوا يدافعون حقيقةَ ما قد ثَبَتَ عندهم صحته ، واستحكمت لديهم معرفته . وقد أُنْشِد لبعض الجاهلية الجهلاء :

ألا ضَرَبَتْ تلك الفتاةُ هَجِينَهَا ألا قَضَبَ الرَّحْمنُ رَبِّي يمينَها

وقال سَلامةُ بن جَنْدَل السّعدي :

عجِلْتُمْ علينا عَجْلَتَيْنا عليكُمُ

ومَنْ يَشَأ الرَّحمنُ يَعْقِدْ ويُطْلِقِ (٤٣)

إذنْ فهذا الايمان بقدرِ الرحمن ، وإرادته عند كعب ، ليس شيئاً جديداً ، ولا جاء نتيجة إسلامه ، ولكنه من معين ثقافته ومعتقده الجاهليّيْن ، استخدمه في قصيدته كما استخدمه من قبله سلامةُ بن جَنْدَل السّعدي الشاعر « الجاهلي »(٤٤)

وكذلك حديث كعب عن العفوُ وإن كان سمةً من السِّمات البارزة في الآداب الاسلامية السمحة كما نص القرآن « خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عن الجاهلينَ) (٤٥) . إلاّ أنه كان من المعاني والصفات الخلقية التي كانت معروفة عند الجاهليين . يقول كعب في بيتٍ من قصيدة له :

وبالعفوِ وَصّانِي أبي وعشيرتي وبالدَّفْع عنها في أمورٍ تَرِيبُها

وعلى احتمال أنه ربما قال هذا البيت بعد إسلامه — وهذا غير وارد — فمبدأ

(٤٣) الطبري ، تفسير ١ : ١٣١ .

(٤٤) ابن قتيبة ٢٧٢ . (٤٥) الأعراف ١٩٩ .

العفو أخذَهُ عن أبيه وصيةً ، ووالدُه زهير بن أبي سُلْمى تُوُفّي قبل ظهور الاسلام (٤٦) .

أما أن يذكر كعْب القرآن الكريم في بيته الثالث ، فلا ينبغي أن يؤخذ على أنه دليل تأثر ديني ، فانّ كعباً — كما مَرَّ — قد أعَدَّ العُدّة لهذا الموقف ، واختار له ما يناسبه من الكلمات ، وماذا غيرُ القرآن — وأكْرِمْ به — يُمكن أن يشفع كعب به قصيدته في محاولة مستميتة لاستمالة قلب النبي ، عليه الصلاة والسلام ، طلباً للصفح والعفو .

قد يتحدث أي شاعر عن القرآن أو النبيّ عليه الصلاة والسلام ، حين يكون في وضع مثل وضع كعب ، وموقف كموقفه ،وليس ضرورياً أن يكون هذا الشاعر مسلماً . لعل خير مثال على هذا أبيات أبي عزة الجُمَحي الّتي قالها بعد إطلاق النبي ، عليه الصلاة السلام ، له — عندما أُسِر في غزوة بَدْر — وهو على كُفْره ، فقال :

ألا أبْلغا عَنّي النّبيَّ (محمداً) بأنّكَ حَقٌّ — والمَليكَ — حَميدُ
وأنت امرؤ تدعو الى الرُّشْدِ والتُّقَى
عليك من اللهِ الكريم شَهيدُ (٤٧)

ومع ورود هذه المعاني الإسلامية في هذا الشّعر ، فما كانَ أبو عَزّة مسلماً بل كان مشركا ، ولكنه شعرُ الشّاعر المحتاج الى العفو وقد أُسِر ، فاختار في بَيْتَيْه — وقد عَرَفَ من يخاطب — كلمةَ النّبي وما آمن بنُبُوّته ، ووصَفَهُ بأنه يَدْعُو الى « الرشدِ والتُّقَى » ، وما آمن بدعوته ، بل قُتِلَ على شركه ، وقتله الرسول ، عليه الصلاة والسلام.

لا غرابة اذنْ أنْ يستخدم كعب في بيته : « نافلة القُرآن فيها مواعيظٌ وتفصيلُ » ، فأبو عَزّةَ وكعبٌ سمِعا ، وضَمّنا ما سمِعاه في شعرهما .

(٤٦) ابن قتيبة ١٤١ ، ديوان كعب ٢٠٩ (٤٧) ابن سلام ٢٥٣ — ٢٥٥ .

وكعب عُفِي عنه ، فما عاد الى الهجاء ، وأبو عزّة هجا فعُفِي عنه ، وعاد الى الهجاء فَقُتِل .

٤ـ ثم ينتقل كعب من اعتذاره للرسول ، عليه الصلاة والسلام ، الى وصف الأسد في أبيات ستة من أبيات القصيدة (٤٣ ـ ٤٨) . ولا شيءَ في هذا يمكن الوقوف عنده ، فقد دفعه وصف هيبته من رسول الله الى القول بأن خوفه من رسول الله أشد عنده من خوفه من أسد ضارٍ له صفات ذَكَرها في أبياته الستة :

لذاك أهيبُ عندي إذْ أُكلِّمُهُ
وقيلَ : إنّكَ مسبورٌ ومسؤول
مِنْ ضَيْغَمٍ من ضَراءِ الأسْدِ مُخْدَرُهُ
ببطْنِ (عَثَّرَ) غِيلٌ دونَهُ غِيلُ[٤٨]

الى آخر الأبيات .

٥ـ البقية الباقية من أبيات القصيدة ـ وهي ثمانية أبيات خصَّ كَعْب بها المهاجرين وعلى رأسهم رسولُ الله عليه الصلاة والسلام :

إنَّ الرسولَ لَسيفٌ يَستضاء بـه
مُهَنَّدٌ من سُيُوف الله مسلولُ
في عُصْبَةٍ من قُرَيشٍ قالَ قائلُهُمْ
ببطن مَكّةَ لَمّا أسلَموا: زُولُوا
زالُوا ، فما زال أنكاسٌ ولا كُشُفٌ
عِنْدَ اللِّقاءِ ، ولا مِيلٌ معازيلُ
شُمُّ العَرانينِ أبطالٌ لَبُوسُهُمُ
من نَسْجِ (داوود) في الهَيْجا سَرابِيلُ
بِيضٌ سَوابِغُ قد شُكَّتْ لها حَلَقٌ
كأنّها حَلَقُ القَفْعاءِ مجدولُ

(٤٨) ديوان كعب ٢١ ـ ٢٢ .

يَمْشُونَ مَشْيَ الجِمالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ
ضَرْبٌ إذا عَرَّدَ السُّودُ التَّنابِيلُ
لا يَفْرَحُونَ إذا نالَتْ رِماحُهُمُ
قَوْماً ، وليسُوا مجازيعاً إذا نِيلُوا
لا يَقَعُ الطَّعْنُ إلاّ في نُحُورِهِمُ
ما إنْ لهُمْ عن حِياضِ الموت تهليلُ (٤٩)

وإذا استَبْعَدْنَا البيتَ الأول ، وهو بيتٌ يتيم في مديح الرسول ، عليه الصلاة والسّلام ، والبيت الثّاني وهو خاصّ بذكر معنى الهِجْرة ، فإنّ بقية الأبيات لا يختلف اثنان في أنها مديح جاهلي يحمل في معانيه وصوره كلّ صور المبالغة في وصف لباس الحرب والشّجاعة واستحالة الانهزام .

وما قيل من قبلُ عن استخدام كعب للفظة « القرآن » يمكن أنْ يقال هنا عن تضمينه لمعنى « الهجرة » .

• • •

ولعل من كمال البحث — وخاصة أني قد أشرت في مكان آخر منه الى أن الشاعر عموماً يُعِدُّ العدة اللفظية التي تناسب مقام الرسول ، عليه الصلاة والسلام — أن اعطي مثالا أكثر وضوحاً على هذا .

ولعلنا لا نجد مثالاً أفضل من قصيدة الأعشى في مدح الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، وهي قصيدة أعدّها ليلقيها أمام الرسول مقدمة لإسلامه ، لكنه لم يفعل ، لإقناع قُريش له بعدم الدخول في الإسلام ، فمات مشركا .

والقصيدة تفيض بالمعاني الإسلامية :

له صدقاتٌ ما تَغِبُّ ونائِلُ ... وليس عطاءُ اليوم مانِعَهُ غدا
أجِدَّكَ لم تسمَعْ وصاةَ (مُحَمَّدٍ) ... نَبِيِّ الإلهِ حينَ أوصى وأشهدا

(٤٩) المرجع نفسه ٢٣ — ٢٥ .

إذا أنْتَ لم تَرْحَلْ بزادٍ من التُّقَى ... ولا قَيْتَ بعْدَ الموتِ من قَدْ تَزَوَّدا
نَدِمْتَ عـلى أنْ لا تكونَ كمثله ... وأنّكَ لم تُرْصِدْ لِما كان أرصدا
فإيّاكَ والمَيْتـاتِ لا تَقْرَبَنّها ... ولا تَأْخُذَنْ سَهْماً حديداً لِتَفْصِدا
وذا النُّصُبَ المنصوبَ لا تَنْسِكَنَّهُ ... ولا تَعْبُدِ الأوثانَ واللهَ فاعْبُدا
وصَلِّ على حينِ العَشِيّاتِ والضُّحَى ... ولا تَحْمَدِ الشّيْطانَ واللهَ فاحْمَدا
ولا السّائِلَ المحرومَ لا تَتْرُكَنَّهُ ... لعاقبةٍ ولا الأسيرَ المقيَّدا
ولا تَسْخَرَنْ من بائسٍ ذي ضَرارَةٍ ... ولا تَحْسَبَنَّ المرء يوماً مُخَلَّدا
ولا تَقْرَبَنْ جارَةً إنَّ سِرَّهـا ... عليك حرامٌ فانْكِحَنْ، أوْ تأبّدا(٥٠)

لا أظن القارئ يشك في وجود بعض المفاهيم الإسلامية في قصيدة الأعشى هذه ، ولعل مقارنتها ببعض الآيات القرآنية يوضح المراد :

فالبيتان الثالث والرابع ، متأثران بقوله تعالى : « وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى » (٥١) .

والبيتان الخامس والسادس ، فيهما معنى قوله تعالى : « حُرِّمَتْ عليكم المَيْتَةُ والدَّمُ ولَحْمُ الخِنْزِيرِ وما أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ به » (٥٢) .

والبيت السابع ، فيه معنى قوله تعالى : « واذْكُرْ رَبَّكَ كثيراً ، وسَبِّح بالعَشِيِّ والإبْكَار » (٥٣) .

والبيت الثامن ، فيه معنى قوله تعالى : « وفي أموالهم حَقٌّ للسّائِلِ والمَحْرُومِ »(٥٤)
والبيت التاسع ، فيه معنى قوله : « يَا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أنْ يكونُوا خَيْراً مِنْهُمْ » (٥٥) .

---

(٥٠) ديوان الأعشى ١٨٤ ، ١٨٧ .
(٥١) البقرة ١٩٧ .
(٥٢) المائدة ٣ .
(٥٣) آل عمران ٤٢ .
(٥٤) الذاريات ١٩ .
(٥٥) الحجرات ١١ .

والبيت العاشر ، فيه معنى قوله تعالى : « ولا تَقْرَبُوا الزِّنَى إنّهُ كانَ فاحِشَةً وساءَ سَبِيلا » (٥٦) .

تلك صورة من صور إعداد الشّاعر لقصيدته ، مَثّلَهَا لنا الأعشى .

ولعل كعباً لا يبعد من ذلك كثيراً . ومما يؤيد هذا أنه ، بعد إلقائه قصيدَتَهُ وإعلانه إسلامه وحصوله على العفو ، يختفي من عالم المدينة ، فلا نسمع له قصائد في مديح الرسول ، أو الدفاع عن الإسلام ، كما فعل أخوه بُجَيْر ، أو غير بُجَيْر من شعراء الرسول .

والمُسْتَقْصي لديوان كعب – إذا استبعد قصيدته في مديح الأنصار – لا يجد شيئاً من هذا ، إلاّ قصيدة واحدة في ثلاثة عشر بيتاً ، قال الأصمعي : « إنها لأوس بن حجر » (٥٧) .

ولو تتبعنا الأبيات في ديوان كعب ، لخرجنا بثلاثة أبيات من قصيدة يُشَكُّ في إسلاميتهـا (٥٨) ، وبيت من قصيدة أخرى (٥٩) ، وبيت من ثالثـة (٦٠) . ذلك كل ما نجده في الديوان .

يقول ابن عبدالبر ، بعد ذكره خبر إسلام كعب وقصيدته : « ولا أعلم له في صحبته وروايته غيرَ هذا الخبر (٦١) .

---

(٥٦) الإسراء ٣٢ .
أشير هنا الى أن هذه المقارنة من عمل محقق ديوان الأعشى : د . محمد محمد حسين .
(٥٧) ديوان كعب ١١١ .
(٥٨) المرجع نفسه ٥٦ مع العلم أن مطلع القصيدة حديث عن الخمر إذ يقول (ص ٤٢ – ٤٥)

وقد أشهد الكأس الروية لاهيـاً ... أعل قبيل الصبح منهـا وأنهـل
ينازعنيها لين غير فـاحـش ... مبادر غايات التجـار معذل
نشاوى ، نديم الكأس منا مرنح ... وعيس مناخـات عليهن أرحـل
وجحل سليم قـد كشفنا جلاله ... وآخر في أنضاء مسح مسربل

(٥٩) المرجع نفسه ٢٢٧ .
(٦٠) المرجع نفسه ٢٢٨ .
(٦١) ابن عبدالبر ١٣١٣

بقي موضوعان مهمان :

١ــ لماذا خَصَّ كعب بن زهير المهاجرين بمديحه ، وأَغْفَلَ الأنصار ؟

٢ــ هل أعْطَى الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، بُرْدَتَهُ كعباً ؛ ؟

١ــ لقد عَلّلت المصادر مديحَ كعب للمهاجرين ، وإغفاله للأنصار ، بأنَّ رجلاً من الأنصار ، عندما دخل كعب مسجَد رسولِ الله ايعان إسلامه ، وثب وقال : « دَعْني أضرِبْ عُنُقَهُ ! فكفّهُ النبي ، عليه الصلاة والسلام ، عنه »(٦٢)

قال السُّكّري : « فبلغَنَا أنَّ عاصِمَ بن عمر بن قتادة قال : إنما قال كعب (إذا عَرَّدَ السُّودُ التّنابيلُ) يريد الأنصار ، لأنَّ رجلاً منهم وثَبَ عليه ، فَكَفَّهُ النّبي ، ، صلّى الله عليه وسلّم ، وخَصَّ المهاجرين من قُرَيش بالمدح مع مدح رسولِ الله ، صلّى الله عليه وسلّم »(٦٣) .

وقال عمر بن شَبّة : « إنَّ كَعباً نزل برجل من جُهَيْنة (بالمدينة) فلمّا أصبح أتى النّبيّ، عليه الصلاة والسلام، فقال : يا رسول الله ! أرأَيْتَ إن أتيتكَ بكعب بن زهير مُسْلِماً ، أَتُؤمِّنَهُ ؟ قال : نعم ، قال : فأنا كعب بن زهير ، فتواثبتِ الأنصارُ ، تقول : يا رسول الله : إئذَنْ لنا فيه ، فقال: وكيف وقد أتاني ! وكفَّ عنه المهاجرون ، ولم يقولوا شيئاً . . . وعَرَّضَ بالأنصار في قصيدته في عِدَّة مواضع ، منها قولُهُ :

كانت مَواعيدُ (عُرْقوبٍ) مَثَلاً وما مواعيدُها إلاَّ الأباطيلُ (٦٤)

ومع إمكانية قبول هذا التّعليل لإغفال كَعْب للأنصار ، لا أميل اليه ولا أرجّحه ، وذلك لسببين :

الأول : أن ارتجال كعب لقصيدته أمر مستبعد ، ولا بُدّ أنه أعد قصيدته قبل مجيئه للرسول ، خاصةً وأنَّ كعباً أحدُ تلاميذ المدرسة الأوسيّة التي اشتهرت بتنقيح

---

(٦٢) ديوان كعب ٥ وانظر : ابن سلام ١٠٠ – ١٠٢ ، ابن قتيبة ١٥٤ – ١٥٥ .
(٦٣) ديوان كعب ٥ – ٦. (٦٤) ابن قتيبة ١ : ٨٧ ، ١٤٤ .

الشعر قبل إخراجه ، وحولياتُ زهير ، والد كعب ، خيرُ مثال [٦٥] .

الثاني : أكاد اجزم بان السبب الحقيقي لهذا الإغفال يعود الى ضغائن قبلية جاهلية بين كعب والأنصار ، أو على الأصح بين مُزَيْنة والخزرج [٦٦] .

يقول السُكّري : « كانت الأوْسُ من الأنصار حلفاء مُزَيْنة ، فمرَّ رجل من مُزَيْنة يقال له جُؤَيّ على الأوْسِ والخزرج وهم يقتتلون ، فدخل في حلفائه ، فأصيب ، فمرَّ به ثابتُ بن المُنذر بن حرام ، أبو حَسّان بن ثابت الشاعر فقال : يا أخَا مُزَيْنة ! ما طرحك هذا المَطْرَح ؟ فوالله إنّك من قوم ما يحمونك ! فقال جُؤَيّ ، وهو يَجُود بنفسه : أُعْطِي الله عهداً لَيُقْتَلَنَّ بي منكم خمسون ليس فيهم أعْوَر ولا أعْرَجُ ، فقال : فسارت كلمتُهُ حتى أتت (عَمْق) وهي بلادُ مزينة ، فثاروا يريدون الخزرج بدم جُؤَيّ قال : فلقِيَتْهُمْ مُزَينة ببعاثَ ، وهي بِيثْرِب ، ورئيسهُم مُقَرِّن بن عائذ . . فاقتتلوا ، فقُتِلَ من الخزرج عدَّة وأُسِر ثابت بن المُنذر . . . فأنْشأ كعب (بن زهير) عند ذلك يقول :

لقد وَلّى أليّتَهُ جُؤَيٌّ ... معاشرَ غير مطلول أخوها
لِنَدْرِكَ والنُّذُورَ لها وفاءٌ ... إذا بلَغَ الخزايةَ بالغُوها
صَبَحْنا الخَزْرَجِيّةَ مُرْهَفاتٍ ... أَبادَ ذَوي أَرُومَتِها ذَوُوها
فما عُتِرَ الظِّباءُ بِحَيِّ كَعْبٍ ... ولا الخمسونَ قَصَّرَ طالِبُوها [٦٧]

وهي قصيدةٌ في عشرة أبيات .

إذنْ فالضغائن بين مزينة والخزرج كانت قائمة في الجاهلية ، وكعب كان طرفاً مباشراً فيها كما تدل القصيدة .

ويبدو أنَّ الإسلام لم يَمْحُ هذه الضَّغائن من نفوس بعض الخزرج إذْ نرى حَسّان بن ثابت الخزرجيّ شاعر الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، يقول :

(٦٥) الأصبهاني ١٧ : ٤٤ .
(٦٦) ديوان كعب ٢٠٠ ، ٢٠٩ – ٢١٢ .
(٦٧) المرجع نفسه ٢٠٩ – ١١٢ ، وانظر : ابن سلام ٢١٦ .

جاءت (مُزَيْنة) من (عَمْقٍ) لتُخْرِجَني
إخْسَيْ (مُزَيْنَ) وفي أعناقكم قَدَدِي
يَرْمُونَ بالقول سِرّاً في مهادنة
يُهْدَى إليَّ كأنّي لستُ من أحَدِ [٦٨]

والقصيدة – كما تقول مناسبتها – نظمها حسّان في هجاء بلال بن الحارث المُزَنيّ، وهو ممن تهدَّدُوا حسان بن ثابت للكلام الذي تَكَلّم به في حديث عائشةَ » . وقد وقعت قصة الإفك في السنة السادسة للهجرة .

وتعميم حسّان في هجائه لمُزَيْنة ، بالرغم من أنَّ المهجُوَّ واحد ، يشير الى أن المُزَنيين كانوا وراء بلال بن الحارث ، الذي يقول فيه ابن حجر إنه « . . . كان يحمِل لواءَ مُزَيْنة في فتح مكة » [٦٩] . كما أن قبيلة حسّان هي أيضاً وراءه ، وهذا واضح من عجز بيته الثاني : (. . . . كأنيِّ لستُ من أحَدِ)

كأنه أراد أن يقول : الخزرج من ورائي .

إذن فكعب بن زهير قد جاء الى المدينة حاملاً معه تركة خلافات وحروب وضغائن بين قبيلته والأنصار ، ولا بد – على هذا – أنه تعمد أن لا يمدحهم ، بل أن يُعَرِّض بهم في بيته : (. . . إذَا عَرَّدَ السُّود التَّنابيلُ) [٧٠] .
ولعله أيضاً قَصَدهم في بيته :

لا تأخُذَنّي بأقوال الوُشاةِ ولم
أذْنِبْ ولو كَثُرَتْ عنّي الأقاويلُ [٧١]

صحيح أنه مدح الأنصار بقصيدته :

من سَرَّهُ كَرَمُ الحياةِ فلا يَزَلْ في مِقْنَبٍ من صالحي (الأنْصَارِ)[٧٢]

لكنه مديح جاء بعد أن « أهدت إليه (الانصار) وكلموا النبّي »[٧٣] وقال :

(٦٨) ديوان حسان ١ : ٢٨٤ .
(٦٩) ابن حجر ١ : ٣٢٦ .
(٧٠) ديوان كعب ٢٤ .
(٧١) المرجع نفسه ٢٠ .
(٧٢) المرجع نفسه ٢٥ .
(٧٣) المرجع نفسه ٢٥ .

« لولا ذكَرْتَ الأنصار بخير فإنّهم لذلك أَهْلٌ » (٧٤) . فليس اذن مديحاً عن طيبة خاطر

وكأني به قد حدّد عدد ممدوحيه من الأنصار : « قال أبو عمرو : المِقْنَبُ : ألفٌ وأقلُّ ، ولم نسمع ثلاثين وأربعين » ، وقال الأصمعي : هم الجماعة من الفوارس نحو الثلاثين أو أكثر أو أقلّ » . وقال ابن منظور : « المِقْنَبُ من الخيل ما بين الثلاثين الى الأربعين ، وقيل : زُهَاء ثلاث مئة . . . وقيل : دون المئة » (٧٥) .

هل قصد كعب في مديحه للأنصار أن يخص الأوس ، حلفاءَ قبيلته في الجاهلية ، دون الخزرج ؟ رُبّمَا .

٢ــ بقي موضوع إهداء النبي، عليه الصلاة والسلام ، بُرْدَتَه لكعب .

المتتبع للروايات المتفرقة في المصادر التي وصلت إلينا ، يجد أن خبر إهداء النبيّ ، عليه الصلاة والسلام ، بردَتَهُ لكعب يرد في المصادر المتأخرة . لم أعثر على رواية واحدة ــ فيما ألف قبل المئة الرابعة للهجرة فيما وصل الينا من مصادر تقــول ــ بجزم وبرواية موثقة ــ إن الرسول أهدى بردته لكعب .

ولعل المصدرين الوحيدين اللذين أوردا خبر (البردة) في مصادر المئة الثالثة ، هما : طبقات فحول الشعراء لابن سَلاّم (المتوفّى سنة ٢٣١ هـ) ، والشعر والشعراء لابن قُتَيبة (المتوفّى سنة ٢٧٦ هـ) .

تقول رواية ابن سَلاّم ، بعد أن أورد خبر إسلام كعب ، عن طريق سعيد ابن المُسَيّب (المتوفّى سنة ٩٤ هـ) : « فكساه بُردةً اشتراها معاوية من آل كعب بن زهير بمال كثير ، قد سُمّي ، فهي (البردة) التي تلبسها الخلفاء في العيدين. زعم ذلك أبان » (٧٦) . فمن هو أبان هذا مصدر خبر البردة ؟

لقد روى ابن سلام في طبقاته أن أبان بن عثمان البجلي (المتوفّى سنة ٢٠٠ هـ) والمعاصر لابن سلام ، في اثني عشر موضعاً ، فهل هو المــراد هنا ؟ ويكون

(٧٤) ابن هشام ٢ : ٥١٥ . (٧٥) ديوان كعب ٢٦ ، ابن منظور ، ولسان ، مادة : « قنب ».

ابن سلام قد روى خبر (البردة) عنه ، منفصلاً عن خبر إسلام كعب ذلك المروي عن طريق سعيد بن المسيب ؟

- قد يكون المراد به عند ابن سلام : أبان بن عثمان بن عفّان (المتوفى سنة ١٠٥هـ) وهذا ما ترجحه رواية ابن قتيبة إذْ تقول : « فكساه النبي ، صلى الله عليه وسلم بردة اشتراها معاوية بعد ذلك بعشرين ألف درهم ، وهي التي يلبسها الخلفاء في العيدَيْن . زعم ذلك أبان بن عثمان بن عفّان »(٧٦) .

وعلى خلاف ابن سلاّم ، روى ابن قُتَيبة خبر إسلام كعب دون أن يذكر سند روايته . لكنّ نص الخبر عنده يكاد يكون نص خبر ابن سلاّم ، مع زيادة في الأبيات عند ابن قتيبة (٧٧) .

والسؤال الآن : هل رواية ابن قتيبة الخالية من السند هي أيضاً عن طريق سعيد ابن المسيب ؟ أكاد أعتقد ذلك .

وعليه فاننا أمام احتمالات ثلاثة :

١ــ أن يكون راوي خبر (البُردة) ، عند ابن قتيبة ، هو سعيد بن المسيب (المتوفّى سنة ٩٤ هـ) عن معاصره أبان بن عثمان بن عَفّان (المتوفّى سنة ١٠٥هـ) بالرغم من عدم ورود اسم سعيد بن المسيب ، ولكنه احتمال يؤيده تطابق النصين عند ابن سلام وابن قتيبة .

٢ــ أن يكون راويه ، عند ابن سلام ، أيضاً ، سعيد بن المسيب عن أبان بن عثمان بن عفان ، بالرغم من عدم ورود اسمه كاملا عند ابن سلام والاقتصار على « أبان » . وهذا احتمال تؤيده رواية ابن قتيبة .

٣ــ أن يكون راويه عند ابن سلام هو ابن سلام نفسه، ويكون رواه عن أبان ابن عثمان البَجَليّ (المتوفّى سنة ٢٠٠هـ) .

وهذا احتمال يؤيده كون أبان البَجَليّ أحد مصادر ابن سلام في كتابه طبقات فحول الشعراء .

---

(٧٦) ابن سلام ١ : ١٠٢ . (٧٧) ابن قتيبة ١٥٦ .

ليس بين هذه الاحتمالات واحد يمكن فيه الجزم بطرفيه، الراوي والمروي عنه، لكن هذه الروايات تدل ، بطريق غير مباشر ، على أن سعيد بن المسيب، روى الخبر عن أبان بن عثمان بن عفان، بالرغم مما يقود اليه هذا الاستنتاج من تشكك في رواية خبر اسلام كعب كله مع خبر البردة ، نظراً لأن خبر الاسلام هذا وخبر البردة رويا عند ابن سلام وابن قتيبة بسند واحد ، ثم ذكر بعدهما : « زعم ذلك أبان » .

ولا يمكن الفصل بين الخبرين إلا على تقدير أن حرف الفاء الوارد في خبر (البردة) في قوله : « فكساه . . . » حرف استئناف وليس عاطفا .

أنتقل — بعد هذه الاحتمالات — الى نص الخبر وطريقة صياغته حيث استعمل « الزعم » في الرواية عن أبان . وهذا من غير ريب يدل على التشكك في روايته سواء عند سعيد بن المسيب ، أو ابن سلام ، أو ابن قتيبة .

يقول ابن فارس : « زعم : القولُ من غير صحة ولا يقين . قال الله جلّ ثناؤه: « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا » ، وقال الشاعر :

زَعَمَتْ غدانة أنّ فيها سَيِّداً ضَخْماً يُوارِيهِ جناحُ الجُنْدَبِ (٧٨)

وقال ابن منظور (مادة زعم) : « قال الليث : سمعت أهل العربية يقولون : إذا قيل : ذكر فلان كذا وكذا ، فانما يقال ذلك لأمر يُسْتَيْقَنُ أنه حق ، وإذا شُكَّ فيه فلم يُدْرَ لعله كذب أو باطل قيل : زعم فلان . وقيل : الزعم : الظن ، وقيل : الكذب .

وقال ابن السِّكِّيت : ويقال للأمر الذي لا يوثق : به مزعم ، أي : يزعم هذا أنه كذا ، ويزعم هذا أنه كذا . » (٧٩) .

واما مدح الأعشى قيس بن معدي كرب الكندي فقال :

ونُبِّئْتُ قيساً ولم آتِهِ وقد زَعَمُوا سادَ أهلَ اليَمَنْ

(٧٨) ابن فارس ، مقاييس ٣ : ١٠ . (٧٩) ابن منظور : مادة (زعم) .

« عابوه بهذا الشك . وقيل : إنّ قيساً أنكر ذلك عليه فجعل مكان : قد (زَعَمُوا) ، على نَأيه » [٨٠] فجاء البيت :

ونُبِّئْتُ قَيْساً ولم آتِـهِ على نَأيهِ ساد أهْلَ اليَمَنْ

وقال جَرير :

زَعَمَ الفَرَزْدُق أنْ سَيَقْتُلُ مَرْبَعاً
أبشِرْ بِطُولِ سلامةٍ يا مَرْبَعُ [٨١]

وهذا رسول الله ــ كما ورد في سنن أبي داوود ــ يقول : « بئس مطية القوم : زَعَمُوا » [٨٢] .

أخلُص من هذا الى أن رواية سعيد بن المُسَيّب أو ابن سلاّم أو ابن قُتَيبة ، لا يمكن الركون اليها ، ولا الاحتجاج بها ما داموا وهم العلماء الأفاضل ، أوردوا خبر (البردة) عن أبان بتلك الطريقة المتشككة : « زعم أبان » .

واذا تركنا ابن سلام وابن قتيبة ، وتتبعنا المصادر الأخرى التي أوردت خبر إسلام كعب عامة ، نجد من أورد خبر إهداء الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، بردته لكعب قليلاً جداً . فثعلب في المجالس ، والأصبهاني في الأغاني ، وابن بِشْران في خبر إسلام كعب ، وابن هشام في السيرة ، وابن عبدالبر في الاستيعاب ، والسهيلي في الروض الأُنُف ، وابن الأنباري في شرح قصيدة كعب ، والخطيب التبريزي في شرحه أيضاً لقصيدة كعب ، ذكروا خبر إسلام كعب لكنهم أغفلوا خبر هذا الإهداء .

واذا راجعنا كتب الحديث المعتبرة ، كصحيح الإمام البخاري ، وصحيح مسلم ، وسنن الدارمي ، وموطأ الإمام مالك ، وسنن النّسائي ، والترمذي ، وابن ماجة ،

---

(٨٠) المرزباني ، الموشح ٥٠ – ٥١ .

(٨١) ديوان جرير ٩١٦ .

(٨٢) أبو داود ، سنن ٤ : ٢٩٤ .

ومسند الإمام أحمد [٨٣] ، لا نجد ايضاً ذكراً لخبر إهداء الرسول بردته لكعب .

على أن ممن ذكر الخبر ابن رشيق (ت٤٥٦هـ) في عمدته ، وهو خبر لا يعتمد الى سند بل يقول : « . . . وهب له بردته ، فاشتراها معاوية بثلاثين ألف درهم ، وقال العُتبي : بعشرين ألفا ، وهي التي يتوارثها الخلفاء ، يلبسونها في الجمع والأعياد تبركاً بها . وذكر جماعة منهم عبدالكريم بن ابراهيم النهشلي الشاعر انه أعطاه مئة من الابل » ! [٨٤] .

فالخبر كما نرى عار من السند ، وإهداء مئة ناقة مبالغة لا نجدها عند غيره .

ولعل من الأخبار التي يمكن ـ عادة ـ الاعتماد عليها نُقول ابن حَجَر العَسْقَلانيّ ، فقد ذكر في الاصابة خبر إسلام كعب فقال : « وأخرج ابن قانع عن طريق الزبير بن بكار ، عن بعض أهل المدينة ، عن يحيى بن سعد ، عن سعيد بن المسيب ، قال : . . . » [٨٥] ثم ذكر الخبر ، وبيتين من قصيدته ، ثم قال : « فكساه النبي ، صلى الله عليه وسلم ، بردة له اشتراها معاوية من ولده فهي التي يلبسها الخلفاء في الأعياد » [٨٦] .

وواضح هنا أن في سند الرواة من هو مجهول ، ولا يمكن الاعتماد على روايته وهو ذلك الراوي الذي عُبِّرَ عنه بأنه « بعض أهل المدينة » .

ويبدو لي — مع هذا — أن رواية الخبر عن طريق سعيد بن المسيب يوحي بأنها رواية ابن سلام نفسها التي مَرَّ ذكرها من قبل ، إلا أن اسم (أبان) لم يرد عند ابن حَجَر .

كذلك يورد السُّبْكِيّ خبر إهداء (البردة) ، ولا يزيد عن رواية ابن سَلاَّم ، « زعم ذلك أبان » [٨٧]

---

(٨٣) رجعت في هذا الى ونسنك : المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ؛ ولهذا لم أدخل كتب الحديث في قائمة المصادر لعدم استخدامي لها .

(٨٤) ابن رشيق ، العمدة ٢٤ .

(٨٥) ابن حجر ٥ : ٥٩٤ .

(٨٦) المرجع نفسه ٥ : ٥٩٤ .

(٨٧) السبكي ، طبقات ١ : ٢٢٩ — ٢٣١.

ويذكر البغدادي خبر كعب ثم يقول : « . . . وأجازه بردته الشريفة التي بيعت بالثمن الجزيل حتى بيعت في أيام المنصور الخليفة بمبلغ أربعين ألف درهم ، وبقيت في خزائن بني العباس . . . والله أعلم بحقيقة الحال » (٨٨) .

وشك البغدادي في القصة واضح من عبارته التي ختم بها الخبر .

أما ابن كثير فقد روى خبر (البردة) ، ثم قال : « هذا من الأمور المشهورة جداً ، ولكن لم أر ذلك في شيء من الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه » (٨٩) .

أكاد أعتقد بأن كل الأخبار والروايات ، التي أشارت الى إهداء الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، بردته لكعب — سواء كان ذلك في المصادر المتقدمة أو المتأخرة — تعود الى رواية « أبان » ، وهي رواية لا يمكن الاعتماد عليها أبداً .

• • •

(٨٨) البغدادي ، خزانة ٤ : ١٢٤ . (٨٩) ابن كثير ، البداية ٤ : ٣٧٣ .